

حقيقة الإنسان.. تأملات قرآنية



يمكننا ملاحظة العديد من الإشارات المختلفة في الآيات القرآنية التي تتناول حقيقة الإنسان، ولكي نحصل على نتيجة عامّة، سنقوم بدرج بعض الآيات في أدناه وذلك بحسب الموضوع الذي تشير إليه كل واحدة منها، وكما يلي: 1- لم يكن تاريخ الإنسان أو ماضيه شيئاً مذكوراً: (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنزَلْنَا خَلْقَهُ نَزَاهُ مِنْ قَدِيلٍ وَوَلَّمْ يَكُ شَيْئًا) (مريم / 67)، و(قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ - هَيْسَنُ وَقَدَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَدِيلٍ وَوَلَّمْ تَكُ شَيْئًا) (مريم / 9). 2- لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً قبل وجوده: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) (الإنسان / 1). 3- التراب (أو الطين) هما أصل الإنسان والمادّة التي خُلِقَ منها: (.. إِنرِي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ) (ص / 71)، و(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنون / 12)، و(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنرِي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) (الحجر / 28). 4- الإنسان مخلوق من (ماء دافق): (خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) (الطارق / 6-7). 5- يتألّف الإنسان من صور مختلفة ومتنوّعة في مسيرته نحو التطوّر الجسماني: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَاقَةً وَخَلَقْنَا الْعَلَاقَةَ مُضْغَةً وَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِطَافًا فَكَسَوْنَا الْعِطَافَ لَحْمًا ثُمَّ أَنزَلْنَاهُ

خَلَقْنَا... (المؤمنون/ 13-14). 6- الإنسان خلق آخر متميِّز، غير جسماني، أو أنَّهُ مزيج من الروح والأمر: (ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ الطَّافَةَ عَلاَقَةً...) (المؤمنون/ 14)، و(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (ص/ 72). إذا نظرنا إلى الآيات السابقة نظرة فاحصة سنلاحظ من خلالها أنَّ الإنسان ليس شيئاً إذا ما استثنينا خلقه سبحانه له، فلا تتحقَّق حقيقته إلا من خلال ارتباطه بخلقه الحقَّ تعالى له. وهذا الارتباط الذي يؤدِّي إلى الخلق التدريجي والتكاملي للجسم هو الكفيل بصيرورته إلى شيء غير مذكور في حين أنَّهُ لم يكن شيئاً أصلاً، ثمَّ إلى تراب، ثمَّ إلى سائل (أو ماء) مهين، ثمَّ إلى نطفة، ثمَّ يتحوَّل بعدها إلى أمشاج، وبعد ذلك تُخلق له العظام وتُكسى باللحم، حتى تنتهي هذه العمليَّة بإدخال الروح إليه. لكننا، ومن خلال تصنيف بعض الآيات القرآنيَّة الأخرى، نصل إلى نتيجة مفادها أنَّ المرحلة الأخيرة من خلق الإنسان تختلف وتتباين عن المراحل التي تسبقها، والسبب في ذلك هو أنَّ طريقة إيجاد الإنسان هي طريقة أمريَّة لا خلقية. ومن الناحية الأخرى، فإنَّ هذه المرحلة تتزامن مع وصفه سبحانه ذاته بأزِّه (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) وهو ما يشير كذلك إلى كون الإنسان من أحسن المخلوقات وأفضلها. إضافة إلى ذلك، فإنَّ عبارة (ثُمَّ أَوَّاهُ نَفْسَهُ خَلَقْنَا آخِرًا) تدلُّ على أنَّ خلق الروح تزامن مع خلق البدن لا بواسطتها؛ بمعنى أنَّ الروح هي أمر مجرد، وإيجادها هو من نوع الإيجاد الأمري، لكنها تتزامن مع خلق البدن وربما كانت مشروطة به أيضاً. وتصف بعض الآيات القرآنية بدن الإنسان بأزِّه (مرآة الحقِّ) كآية (4) في سورة (الجاثية): (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)، والآية الأخرى (20) في سورة (الروم): (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَزْتُمُّ بِشَرِّ نَفْسٍ تُنَفِّسُكُمْ وَإِن يَصْطَرِبْ لَسَوْفَ أَعْلَمُ بِمَا تُصْعِقُونَ). ولكن، بالنظر إلى الآية الشريفة (53) في سورة (فصلت) (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعُونَ لَهُمْ أَزْوَاجَهُمْ وَالْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَزْوَاجَهُ عَلاَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، تندرج جميع تلك الآيات ضمن مجموعة الآيات الآفاقيَّة لأنَّ الإنسان فيها هو عبارة عن مخلوق وأثر في الوقت نفسه كما هو الحال مع الأجزاء الأخرى في عالم الوجود، وبإستطاعته أن يصبح دليلاً ومرشداً إلى الله سبحانه وتعالى بمساعدة العمليَّات الاستدلاليَّة. إلا أننا نلاحظ في آيات أخرى أنَّ القرآن الكريم يشير باهتمام إلى الهويَّة المرتبطة بالإنسان، ومن الواضح أنَّ الآية (15) في سورة (فاطر): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَزْتُمُّ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ) والآية (88) في سورة (القاصص): (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهاَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْخُلُوكُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، ومن خلال إشارتهما الصريحة والتامة

إلى الفقر الذاتي لجميع الموجودات، تُعدّبران من أكثر الآيات القرآنية وضوحاً كذلك في ما يتعلّق ببيان الفقر الذاتي للإنسان نفسه. فصفة (الغني) هي صفة ذات الحقّ سبحانه، وقد جاءت في مقابل (الفقر)؛ إذاً، مع ملاحظة عبارة (إلى الحقّ) تُصبح صفة (الفقر) صفة لذات الإنسان لا حقيقة عارضة على ذاته. ووفقاً للآية (15) في سورة (فاطر)، فإنّ جميع الناس قائمون بغيرهم لأنّ كلمة (الفقير) لا تعني هنا (الضعيف) أو (المعوز الذي لا يملك مالاً أو نقوداً)، بل تعني (الشخص الذي تكسّرت فقرات ظهره وعجز عن الوقوف على قدميه). وهذا الفقير لا يمكنه العودة والوقوف على قدميه من جديد إلا إذا كان قائماً بالآخرين. ومن جهة أخرى، وبالنظر إلى شمولية اسم (الحقّ) - عزّ وجلّ - مقارنة بأسمائه الأخرى، فإنّ الإنسان محتاج إلى الحقّ سبحانه وتعالى في جميع الأبعاد وليس في ما يتعلّق برزقه وحسب. وتستوجب الذات الفقيرة والفارغة للأشياء وجود الحقّ الصمد الذي يملأ جميع الفراغات بحضوره الواسع، بحيث يشمل ذلك ملاء الفراغ الموجود بين عروق رقبة الإنسان والفراغ القائم بين قلبه وبينه. وعلى هذا الأساس، نجد القرآن الكريم ينسب في الكثير من آياته أعمال الإنسان إلى الحقّ سبحانه، ذلك أنّهُ ليس من إله سوى الحقّ تعالى، وبالتالي لا وجود غير وجود الحقّ سبحانه ولا حول ولا قوة كذلك سوى حوله وقوّته عزّ وجلّ، فالقوّة والقدرة جميعاً الحقّ سبحانه وحده (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (البقرة/ 165)، وكلّ ما يقوم به المخلوق مهما بلغت قدرته وطاقته المادية والمعنوية والشخصية، ومهما استخدم من آلات وأدوات، إنّما هو مرتبط بالحقّ تعالى بشكل مباشر. فأعمال الخلق هي عين عمل الخالق، كما أنّ وجود الخلق يمثّل عين وجوده تعالى. واستناداً إلى ذلك، يتّضح لنا بجلاء أنّ نسيان النفس وعرفانها يرتبطان ارتباطاً مباشراً بنسيان الرب وعرفانه كذلك. فذات الإنسان فقيرة وهي تفتقر إلى الحقّ، إذاً فهي حقيقة ارتباطيّة، بل يمكن القول بأنّها عين الارتباط (إلى الحقّ). وبناءً على ذلك، فإنّ معرفة حقيقة هذه الذات الجوفاء الفارغة التي تمتلئ بالحضور الشامل للحقّ تعالى، هي عين معرفة الطرف المَعنيّ بالارتباط، والعكس صحيح أيضاً، فنسيان حقيقة الارتباط المتعلّقة بذات الإنسان تعني نسيان الحقّ تعالى من دون أدنى شكّ. ولذلك، فبإمكان نفس الإنسان أن تصبح مرآة لمعرفة الحقّ سبحانه. ولا بدّ لنا هنا من القول إنّ القرآن الكريم أولى كذلك اهتماماً كبيراً بحياة الإنسان الاجتماعية، وأطلق على جوانبها وصورها المختلفة اسم (مرآة الحقّ). وتُقسّم هذه المجموعة من الآيات إلى قسمين: القسم الأوّل ويضمّ الآيات التي تشير إلى العلاقات الاجتماعية القائمة بين أفراد البشر على أنّها رمز ومرآة للحقّ، مثل الآية (22) في سورة (الروم): (وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، والآية (103) في سورة

(آل عمران): (وَإِذْ كُفِّرُوا زُرْعَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِإِذْنِهِ إِخْوَانًا...). أمّا القسم الثاني من تلك الآيات فيتناول تاريخ الإنسان وسير الماضين وأخبار الأجيال والأُمم السابقة، مثل الآية (42) في سورة (الروم) والآية (11) في سورة (الأنعام) والآية (69) في سورة (الذمل) والآية (86) في سورة (الأعراف). تتّصف هذه المجموعة من آي القرآن الكريم بميزتين مرآتيتين، هما: أن تلك الآيات تمثّل مرآة (أو مرايا) الخبير والامتكلام من حيث أنّها تُخبر عن الغيب، وتؤيّد كَوْن النبي (ص) يتلقّى علومه بواسطة الوحي. وأمّا الميزة المرآتية الأخرى لهذه الآيات فتعود إلى طبيعة الوقائع والأحداث التاريخية. فعلى سبيل المثال، بعد الإخبار عن بعض أحوال النبي داود (ع)، يقول القرآن الكريم: (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَزَّلْنَاهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِن تَكْفُرْ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) (البقرة/ 252)، ومن ذلك يتبيّن لنا أن هذه الحادثة تمثّل بحدّ ذاتها آية من آيات سبحانه وأنّ هذا الإخبار بحدّ ذاته هو آية أخرى من آيات بصرف النظر عن مضمونه ومحتواه. المصدر: كتاب (النظرية الإسلامية في التربية والتعليم)